مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 13، العدد 52 (خريف 2002)، ص 109

اقتحام مستشفى عكا
الجمعة 17 أيلول/سبتمبر 1982**

بيان نويهض الحوت*

مع صباح يوم الجمعة الباكر كانت التعزيزات قد وصلت إلى المهاجمين ودخلوا المنطقة.

ومنذ الصباح الباكر أخذت النداءات تسمع في كل شاتيلا: "سلِّم تسلم".

لكن لو استطاع أحد أن يمر بشوارع وزواريب منطقة شاتيلا بأسرها لاكتشف، من دون أي عناء، عدم صحة أن من "يسلِّم يسلم". فالطرقات والزواريب ملآنة بالجثث. أمّا الخائفون الذين امتلأت الملاجئ بهم فقد تمكن بعضهم من الهرب، غير أن العدد الأكبر قتل داخل الملجأ، أو أمامه، أو عند الحائط المواجه، أو في نهاية الزاروب؛ وهذا فضلاً عن ملاجئ بقيت مملوءة بالناس حتى الجمعة، فجابهت مصائر متعددة، كاليوم السابق.

إن أمكن القول إن ليلة الخميس كانت ليلة القضاء على نزلاء الملاجئ، لأمكن القول إن يوم الجمعة كان يوم اقتحام مستشفى عكا.

تطورت أساليب القتل، وما عادت جدران الموت وحدها تكفي، فكثر استعمال حفر الموت.

تطورت أساليب اقتحام الملاجئ أيضاً، فأكثر من ملجأ في هذا اليوم قضى من فيه حرقاً بقنبلة فوسفورية، أو قتلاً بالرصاص.

لم يتمكن المهاجمون في هذا اليوم من التقدم كثيراً نحو الداخل. لكن هذا لم يحل دون عمليات القتل الجماعي والفردي والتعذيب، التي ضاهت في هذا اليوم ما جرى في اليوم السابق.

يرد في أكثر من شهادة أن الإسرائيليين شاهدوا عمليات القتل الجماعي في الحفر، أو عرفوا عنها وعن غيرها من الأساليب الوحشية من شكاوى السكان لهم، وقد كانت ردات الفعل لديهم متناقضة. فمنهم من كان موقفه سلبياً للغاية، ومنهم من تدخل لمنع أكثر من عملية قتل جماعي.

(**) **المصدر:** من الفصل الرابع، في القسم الأول، من كتاب في قيد الطباعة بعنوان "صبرا وشاتيلا، أيلول 1982".

(*) أستاذة جامعية في العلوم السياسية.

في هذا الفصل تكملة لروايات من الفصل السابق، أو اليوم السابق، وفيه عشر روايات جديدة تناولت كلها مآسي عائلات بأسرها، وكأن القضاء على العائلات هو الهدف الأول لكل هذه الدوامة الدموية.

[.....]

شاتيلا صباح الجمعة،
بين الساعة الخامسة والسابعة

قال أبو جمال، وهو فلسطيني يملك مرأباً لإصلاح السيارات:

> يوم الخميس ما وصلوا لمخيم شاتيلا أبداً، منقدر نقول وصلوا لمنتصف شارع شاتيلا الرئيسي مش أكتر. وصلوا آخر شي تقريباً على حدود محل بيقولولو محل الدوخي، وهو ببيع بالجملة والمفرق. والدوخي صاحب المحل قتل ليلة الخميس، الله يرحمه.(1)

صاحب الشهادة أعلاه هو كما ذكرنا صاحب مرأب يقع في منتصف شارع شاتيلا الرئيسي إلى يمين الطريق للمقبل من شارع السفارة الكويتية. وهو لا يسكن شاتيلا، لكنه يعرفها حجراً حجراً بحكم عمله فيها منذ الستينات. وقد اكتشف حين سمح للناس بالعودة لتفقد بيوتهم ومحلاتهم أنهم دمروا واجهة مرأبه المحكمة البناء، كما وجد أمام المرأب العشرات من القتلى.

ما قاله صاحب المرأب أعلاه، بناء على ما سمعه من آخرين، جاء في شهادات عن صباح الجمعة بناء على الرؤية بالعين المجردة.

كان التصوير والمصورون والصحافة والصحافيون من الأمور الممنوعة حتى يوم السبت إلى ما بعد خروج القتلة. ولكن.. من قال إن عدسة الكاميرا أكثر صدقاً من عين الإنسان؟

هناك خمس شهادات عن صباح الجمعة ما بين الساعة الخامسة والسابعة، تصور لنا شاتيلا في بانوراما حسية من خلال عين الإنسان وذاكرته.

الشهادة الأولى لإحدى اللواتي خطفوهن من الملجأ في الليلة السابقة وأعادوهن إلى الأوزاعي؛ فقد عادت ثنيا تبحث عن زوجها، من دون أن تعلم أن هناك مجزرة قد حدثت. وهي مرت من أمام مرأب أبو جمال وشهدت أن واجهته لم تكن صباح الجمعة قد دمرت بعد. وهي تصف ما رأت:

> الساعة ستة ونص الصبح، ما كان في دومري واحد بشارع شاتيلا الرئيسي، ولا صوص شفنا أبداً. بتتمني تشوفي واحد ماشي بالشارع لكن ما فيش حدا. أنا مشيت

(1) POH. S/SH. No. 44 (231/T. 44). "Abu Jamal". Interview with author. Beirut: Outside talk all through Shatila main street, March 19, 1983.

ووصلت لكاراج أبو جمال بنص الشارع ما كانش لسّا بالمرة مدمَّر أبداً أبداً. ما بعرف إيمتى رجعوا دمروه، لأنّو بعدين لمّا خلص كل شي شفناه مدمَّر.

.. همّي بس سمعوا صوت سيارة عم تدور صاروا ينزلوا من فوق [تقصد حي عرسال] ومن أول الحرش، من أكتر من محل، وشو تلاقيهم متل النمل، وبلّشوا يرشوا علينا ويقولولنا: "لوين جايين يا عكاريت يا شراميط لوين جايين؟"

خبّرناهم إنّو نحنا أخدونا ونيّمونا بالأوزاعي، وإنّو نحنا طلبنا إذن من مسيو نديم بدنا نروح نجيب حليب لاولادنا. إلاّ بقول واحد: "... أختكم على أخت اللّي بعتكم يلاّ على القيادة. يلاّ امشوا." قاموا مشيوا حوالينا طابور من هون، وطابور من هون، وإحنا بالنص راحوا سايقينا، واللّي بتتأخر لحظة، يا يلبطوها برجليهم، يا يضربوها بكعب البارودة.

ونحنا بطريقنا على القيادة بعد السفارة الكويتية لصوب البحر، والساعة بعدها ما صارت سبعة، مرّينا من حد الملجأ مطرح ما كنا، يعني مطرح ما أخدونا الليلة اللّي فاتت، ولا استرجينا نتطلع، لا والله، لأنّو اللّي بتتطلع هيك وَلاّ هيك يقولولها تطلعي قدّامك وما تتلفتي لا هيك ولا هيك. لكن شو بدنا نقول، من غير ما نتلفت شفنا الناس ملقحة على الطرقات. لقينا إم محمد، إمها لإم حسين، بجنب بيت أبو عفيف، شفناها طابّة طَبّ على بطنها، وكاينين طاخينها.. وعند بيت أبو بسام كاينين هيّ [أم بسام] واولادها هدول كمان طاخينهم هناك على عتبة بيتهم.. هادا الجرف ما كان في جرف بعد للبيوت هونيك ولا دمار ولا شي بالمرة. كانت البيوت اللّي مرّينا عليها كلها بعدها واقفة.[2]

الشهادة الثانية لامرأة أُخرى شاركت في مسيرة الخميس النسائية، وقد كانت هي وأمها من اللواتي اختطفوهن وأرجعوهن إلى الأوزاعي. وقد كان لهذه المرأة مع نساء أُخريات تجربتهن في محاولة العودة إلى شاتيلا صباح الجمعة. وهي تقول:

الساعة خمسة، أول الضو، قامت واحدة لبنانية نطّت وقالت: "إنتو فلسطينية روحوا لحالكم وإحنا بدنا نروح لحالنا، هلّق إذا شافوكم معنا بيقتلونا وبيقتلوكم. خلّيكو إنتو. إحنا اللبنانية بنروح أول شي، وبعدين إنتو بتروحوا يا فلسطينية."

لكن نحنا ما رضينا معهم. رحنا نمشي. هنّي يمشوا بجهة وإحنا نمشي بجهة. والاولاد الصغار يا حرام يركضوا قدّامنا.

جينا من الأوزاعي على بير حسن، ضلّينا ماشين لحد ما وصلنا على ثكنة هنري شهاب. شفنا جيش لبناني، سألنا واحد: "وين رايحين؟" قلنالو: "كنا متخبين من القصف وجينا هلّق مروحين على البيت. في شي؟" قال: "لأ. ما في شي." بعد شوي في واحد عسكري لبناني تاني كان رايح يطلع بسيارة، قام وقف ورجع سألنا: "إنتو وين رايحين؟" قلنالو: "إحنا رايحين على بيوتنا في شاتيلا، في شي؟" قام العسكري قال:

(2) POH. S/SH. No. 32 (232/T. 31). Thunaya B. Interview with author. Massacre area: Narrator's house, March 3, 1983.

"إصحى تروحوا لهونيك، ما تروحوا على صبرا وشاتيلا. بتموتوا إذا رحتوا. ارجعوا أحسنلكم."

نحنا صدقنا كلامه، لكن قلنا بدنا نروح نفادي بأرواحنا أحسن ما نبقى محلنا ويقوموا ييجوا ويدبحونا.

رحنا ومشينا حتى أول شارع شاتيلا، وكنا بدنا نقطع من عند تمثال أبو حسن سلامة لمّا بلّشوا يقنصوا علينا ويضربوا قذايف علينا.

الله نجانا. وكمّلنا نمشي.

نحنا لمّا قرّبنا على الحرش، وبعدين قرّبنا على المخيم، ما في حدا بالمخيم، ولا حدا ولا حكي ولا شي. وين بدنا نروح؟ إحنا قلنا لنروح على مستشفى عكا، ما أنا وإمي منشتغل بعكا، وصرنا نركض واحدة ورا واحدة على عكا، والقنص لاحقنا وشغّال، ولمّا وصلنا المستشفى كانت الساعة تقريباً سبعة الصبح.(3)

الشهادة الثالثة للدركي اللبناني الذي ذكرنا سابقاً أنه كان أحد المسؤولين عن حماية السفارة الكويتية، وقد سارع هو وزملاؤه إلى حماية كل من التجأ إليها من السكان. كان الدركي يقف صباح الجمعة الباكر أمام السفارة لمّا أمسكت به امرأة فلسطينية وهي تصرخ: "عم تقتلونا!! عم تقتلونا!!" لم يصدق ما سمعته أذناه، فقالت له: "تعال معي". وأخذته فعلاً إلى أول مدخل المخيم من شارع السفارة نفسه. وهو يصف ما رآه:

في الشارع الكبير أمام كل بيت خمس أو ست جتت. أنا طلعت لشوف الحي الفوقاني، كل بيت في كمان خمس أو ست جتت. وكان واضح إمّا بكواتم صوت أو سكاكين أو حرق. وعلى أول مدخل المخيم من فوق في بنت اربعة عشر سنة أو خمسة عشر سنة، شايلين صدرها بسكين، ومع رصاصة في وسطها. ما كانت ماتت بعد. هاي أخدها الصليب الأحمر في أول مركز في مار مخايل، واللّي حملوها لعندو كانوا اتنين من العسكر.

وشفت رجّال مقتول على كرسي. كاينين مربطينه، وضاربينه بالبلطة على راسه. كانت القوات موجودة في آخر الشارع، ومعروفة من تيابها الخضرا.(4)

الشهادة الرابعة للمقاتل الفلسطيني "إبراهيم"، الذي أدرك استحالة المجابهة بالسلاح من الليلة الأولى فراح ينقذ من يمكن إنقاذهم من المحتمين بالملاجئ، وشهادته عن صباح الجمعة تتلاقى مع شهادة الدركي أعلاه. فهو يقول:

صباح يوم الجمعة، نزلت وتغمقت داخل المخيم لغاية معسكر الأشبال أنا وأربع شباب، فوجدنا جتة شاب اسمه جمال بركة، وهذا كانوا قوّصوه من بعيد، ركض من

(3) POH. S/SH. No. 46 (234/T. 47). Sa'ida D. Interview by A. M. Massacre area: Narrator's house, March 22, 1983.

(4) POH. S/SH. No. 120 (247/N. 25). I. Q. Interview with author. Beirut: Author's house, August 1986.

الشـارع الرئيسـي لبين الزواريب لغاية ما وقع. ما فيش مين يشـيله. أخدناه وبعتناه على مسـتشـفى غزة.. واللّي اتضـح إنّو جرافات كانت تهدّم البيوت فوق الناس اللّي كانوا يقتلوهم.. وما تسـأل عن الناس المقتولة في الشـارع الرئيسـي بشـاتيلا وفي الزواريب اللّي دخلناها في الحرش.(5)

الشهادة الخامسة لأم أكرم، التي كانت "أولى الباحثات عن الضحايا"، فهي أخذت منذ الساعة الخامسة صباحاً تبحث عن أولادها. لم تجدهم، لكنها استمرت تمشي في الأزقة، تمشي ولا تيأس من البحث. وما أعياها عن الاستمرار سوى الخوف من السقوط مغشياً عليها وليس هناك من مسعف.

هكذا وصفت أم أكرم شاتيلا المنكوبة ما بين الخامسة والسابعة صباحاً من يوم الجمعة:

من أول الشارع أول الزاروبة، يعني من أول ما نفوت من عند بيت أبو أحمد لنوصل عند بيت أبو أسعد لعند رشيدة لفوق، شفت شي ميّي وخمسين جتة. هدول غير اللّي بالملجأ. والزواريب مليانة قتلى. يعني كنت على أي جنب أتطلع ألاقي خمسة ستة، وأنا ماشية مش واعية على حالي كيف ماشية. يعني شفتو الزواريب اللّي بتنفّد على مستشفى عكا في الحرش، هاي كلها مشيت فيها، أطلع بزاروب وأفوت بزاروب، وكل زاروبة أفوت فيها، فيها قتلى، وبعدين منهم من حلاة ارواحهم يكونوا داحشين حالهم تحت طنابر الكان، وهيك يا حرام وأنا مارة من حد رشيدة، هناك في طنبر كاز كان في تحته ست اشخاص زلام داحشين حالهم، همّي حاطينهم، همّي مجمعين جتتهم، همّي من حلاة روحهم تجمعوا على بعض، ما بعرف.

راح قلبي يسقط خاصة عند زاروبة الدوخي، هناك كلها اطفال، وأغلبها نسوان كلها بالشارع وبالزواريب مقتولة. هلّق وين الدوخي، فيش زاروبة بتطلع لفوق، أنا وصلت لنص الزاروبة اللّي بتطلع لبيت موسى، لكن لمّا شفت قتلى كتير صرت أحس الدنيا كلها بتقلب، وما عدت أمسك أعصابي من كتر الشوف اللّي شفتو. ورجعت قلت بركي يصيرلي إشي من الدوخة ومن الشوفة اللّي شفتها. رجعت وضلّيت رايحة على مستشفى غزة دغري، ما كمّلت.

لكن فتكم بالحكي. كان في بحي عرسال الناس الميتة مكدسة فوق بعضها البعض، وكان واضح إنّو الجرافات كاينة تجرف وتكوّم العالم. أنا شفت أتار الجرف على الطريق. وأنا تطلعت على بيوت بعرفها لكن ما لَقيتها. يعني شفت بيوت لحقوا هدموها وجرفوها بليلة واحدة في عرسال. كان القتل والجرف يمشي مع بعضه البعض.(6)

تقول أم أكرم أنها سمعت نداء مكبّرات الصوت "سلِّم تسلم"، وأنها أرادت أن تذهب

(5) POH. S/SH. No. 116 (239/T. 90). "Ibrahim". Interview by Q. Massacre area: Narrator's house, August 1984.

(6) POH. S/SH. No. 19 (249/T. 22). H. Sh. (Um Akram). Interview with author. Beirut: Author's house, February 24, 1983.

لتسلم نفسها كي تجد الأمان، وتقول إنه كان معها عشرة أشخاص من نساء وشبان وأولاد، وقد هيأوا أوراقهم ليسلّموا أنفسهم جميعاً، لكن جاء ابن أختها قاسم وهمس في أذنها:

> لأ، ما تروحيش أبداً. شو بدك يا خالتي من ها الشغلة. هاي كلها خدعة يا خالتي، ما في تسليم ولا إشي عم ياخدوا الناس على المدينة الرياضية وبيقتلوها هناك. إسمعي مني يا خالتي.(7)

عملت خالته بما قال. لم تذهب، ولم تعلم إن كان الآخرون ذهبوا. فيوم الجمعة كان كيوم الحشر.

* * *

تأكيداً لشهادة هند في الحي الغربي، من أنها شاهدتهم يشقون طريقاً جديداً يبدأ من خلف المدينة الرياضية نزولاً إلى حي عرسال، قالت امرأة فلسطينية في شهادتها عن قبل ظهر يوم الجمعة وهم يسوقونهم إلى المدينة الرياضية:

> وشفنا الجرافة عم تشق طريق من المدينة الرياضية للمخيم، وكانوا يوضعوا في الطريق حصى حتى يقدروا يمروا عليه. وكان واضح جداً إنّو شق الطريق ابتدوا فيه قبل صباح الجمعة.(8)

كذلك قالت امرأة فلسطينية من اللواتي مشين على الدرب نفسه مرغمات تحت الحراسة في اليوم نفسه، والمسيرة نفسها، من شارع شاتيلا الرئيسي نحو المدينة الرياضية، مروراً بحي عرسال:

> كانت الجرافة تهدم البيوت وتغطي القتلى بالتراب. وكان هناك اتنين رجال يحملوا القتلى وينقلوهم لحفرة كبيرة. ما كانوا منهم. بيعرفوهم ناس كانوا ماشيين معنا. ولمّا خلصوا من نقل الجتت، كافأوهم راحوا قتلوهم. يا ويلهم من الله.(9)

من خلال المقارنة بين الشهادات الخمس الأولى عن صباح الجمعة الباكر، وبين الشهادتين اللاحقتين في أثناء المسيرة بالإكراه نحو المدينة الرياضية، في الضحى، يبدو واضحاً أن عملية جرف البيوت لم تتم في ليلة واحدة، وإنما كانت عملية مستمرة.

في الشهادة الأولى قالت ثنيا إن البيوت التي شاهدتها في الطريق نحو السفارة الكويتية كانت لا تزال قائمة كما هي، وإن هذه البيوت نفسها قد جرفت فيما بعد، بينما قالت أم أكرم في الشهادة الخامسة عن حي ملاصق هو حي عرسال إنه بدا لها واضحاً أن القتل والهدم والجرف كانت عمليات تتم الواحدة في إثر الأُخرى خلال الليل؛

---

(7) Ibid.

(8) POH. S/SH. No. 69 (231/T. 63). Shahira Abu Rudaineh. Interview by Siham Balqis. Massacre area: Narrator's house, May 30, 1983.

(9) POH. S/SH. No. 56 (231/T. 54). Ziad A. Interview with author. Beirut: Author's house, April 30, 1983.

وأكدت الشهادتان الأخيرتان، عن حي عرسال نفسه بعد ساعات، لامرأتين فلسطينيتين أنهما شاهدتا في أثناء سيرهما بالإكراه مع مجموعات من السكان نحو المدينة الرياضية، كيف كانت البولدوزرات تعمل على الهدم والجرف أمامهم جميعاً.

"شاتيلا الكبرى" كانت معالمها تتغير ما بين مساء وصباح، وما بين ساعة وأُخرى.

هناك جرافات تعمل، وبيوت تهدم، وجثث تبتلعها البولدوزرات.

[.....]

اقتحام المستشفى

كان اقتحام مستشفى عكا الحدث الأبرز صباح يوم الجمعة، وكان المستشفى قد عاد حديثاً إلى مزاولة نشاطه، بعد أن كان معطلاً أيام الاجتياح.

التجأ إلى المستشفى المئات من السكان للحماية، لكنهم جميعاً كانوا غادروه منذ الفجر قبل اقتحامه. أمّا أهل المستشفى من مرضى وأطباء وممرضات، من عرب وأجانب، فقد لاقى كل منهم مصيراً مختلفاً عن سواه، في تلك الساعات العصيبة.

أ – العودة إلى العمل في المستشفى

تأسس مستشفى عكا في أواسط السبعينات، في مبنى يتألف من خمس طبقات، ويقع في شارع السفارة الكويتية قبالة حرش شاتيلا. يحتوي على ملجأ كبير تحت الأرض، وطبقة أرضية، أشبه بالملجأ، قُسِّمت غرفاً للعمليات الجراحية والطوارئ والأشعة والعيادات. وفوق هذه الطبقة تقع العيادات، والإدارة، وغرف المرضى التي تضم نحو ستين سريراً.

قام مستشفى عكا في المرحلة الأولى من الاجتياح الإسرائيلي بدور بارز في استقبال الجرحى، وخصوصاً من محيط المطار، وذلك على الرغم من صغره، وكان الجرحى من مختلف التنظيمات الفلسطينية واللبنانية والقوات السورية.

أصيب المستشفى خلال الاجتياح، لكن الأضرار لم تكن جسيمة بسبب إخلاء الطبقة العلوية منذ بدء الاجتياح ونقل المرضى إلى الطبقة الأرضية. غير أنه مع مواصلة الاجتياح وحصار بيروت، ارتأى الهلال الأحمر الفلسطيني فتح مستشفيات ميدانية ومستوصفات في مناطق أكثر أمناً في رأس بيروت؛ مستشفى عكا بالذات، لم يعد آمناً بسبب موقعه الجغرافي المعرض للقصف الشديد، من جهة، وبسبب وجود محطة وقود قريبة منه، من جهة أُخرى، الأمر الذي قد يؤدي إلى احتراق المستشفى في حال تعرضت المحطة لإصابة مباشرة. وهكذا تحول المستشفى إلى مجرد مركز إسعاف، وانتقل القسم الأكبر من العاملين فيه إلى المستشفيات المستحدثة في رأس بيروت، وكان أهمها مستشفى اللاهوت، الذي أقيم في مدرسة اللاهوت في شارع الصيداني الموازي لكل من

شارع بلس وشارع الحمرا، والواقع بينهما.

عادت الحياة إلى مستشفى عكا بعد انتهاء الحرب وخروج المقاتلين الفلسطينيين والسوريين من لبنان، وجاء متطوعون من الصليب الأحمر اللبناني للمساعدة في إعادة تأهيل المستشفى. ولم يكن هناك تصور أن يعود الإسرائيليون إلى المنطقة. وقبل منتصف أيلول/سبتمبر كان العمل قد عاد إلى مستشفى عكا بشكل طبيعي. كما كان عدد من الأطباء والممرضات الأجانب قد انضم إليه.[10]

موظف في قسم الأشعة رفض إعطاء اسمه، لكنه قال باعتزاز أنه من مدينة عكا أصلاً ومن صبرا ولادة، تحدث عن كيفية التحاقه للعمل في المستشفى، فقال أنه كان يطمح إلى دراسة الطب، لكنه كلاجئ فلسطيني ما كان يحلم بإمكان ذلك. درس في صغره في مدرسة يعبد التابعة للأونروا، والواقعة في زاروب الديك في صبرا. ودرس المرحلة الإعدادية في مدرسة الجليل التابعة أيضاً للأونروا في شاتيلا. ثم أكمل دراسته الثانوية في مدرسة رأس النبع الرسمية التابعة لوزارة التربية اللبنانية. لم يكن أمامه للتخصص بعد تخرجه سوى مدرسة للتمريض أنشأها الهلال الأحمر الفلسطيني، وكانت تحتوي على أربعة أقسام: التمريض؛ المختبر؛ الصيدلة؛ الأشعة. وقع اختياره على القسم الأخير، حيث كان أطباء الهلال يوفرون الدروس النظرية لطلاب الأشعة. أمّا الدروس العملية فكانت تعطى في معهد ألماني في شارع الحمرا. ومنذ أن تخرج سنة 1978 وهو يعمل في قسم الأشعة في مستشفى عكا. وكان يوم حاصرت الدبابات الإسرائيلية صبرا وشاتيلا، فجر الأربعاء في الخامس عشر من أيلول/سبتمبر، هو الموظف المناوب.[11]

قال موظف الأشعة إن دوره في المناوبة كان من الثامنة ليلاً حتى الثامنة صباحاً. وأضاف أنه سهر مع زملائه تلك الليلة، وكانت أحاديثهم تدور عن مقتل الشيخ بشير، والكل توقع أن يحدث شيء ما، لكن ماذا بالتحديد؟ هذا ما لم يتوصل إليه أحد منهم. نحو الساعة الرابعة من صباح الأربعاء، كان الموظف النشيط لا يزال يقظاً بحكم عمله، فسمع هدير الدبابات وهي تقترب من المدينة الرياضية. وقف ونظر في اتجاه السفارة الكويتية فشاهد الدبابات الإسرائيلية الزاحفة. نادى الطبيب المناوب ليلاً وقال له: "أنظر يا حكيم". نظر الطبيب، وهز رأسه، وعلّق بقوله أنه لا بد من أن ينتظر الساعة الثامنة صباحاً، موعد مجيء من سيحل مكانه.

في الثامنة تماماً سلّم موظف الأشعة لمناوب النهار، وغادر المستشفى إلى بيته

(10) POH. S/SH. No. 13 (238/T. 9). Salim Hout. Interview with author. Beirut: Narrator's office, February 11, 1983.

(11) POH. S/SH. No. 54 (230/T. 53). Anonymous. Interview with author. Beirut: Friend's house, April 28, 1983.

في صبرا. لكنه لن يستطيع العودة إلى مستشفى عكا؛ سيبقى هناك، وسيصبح شاهداً على ما جرى يوم السبت في صبرا.[12]

قالت الممرضة نزهة، وهي ممرضة فلسطينية تعمل مع الهلال الأحمر منذ سنة 1979، إن الإسرائيليين جاؤوا إلى مستشفى عكا عدة مرات منذ حصارهم المنطقة بحجة التأكد من عدم وجود "مخربين". وكان الطبيب سامي الخطيب يجيبهم بأن لا أحد هنا سوى المرضى والجسم الطبي. قالت إنهم دخلوا أكثر من مرة وأكلوا في "الكافيتيريا" من دون استئذان، وصعدوا إلى الطبقة الأولى وشاهدوا المرضى، ولم ينسوا قط أن يحملوا للصغار المرضى "البون بون" والشوكولا.[13] ليس من داع للتعليق بأن الجنود الإسرائيليين ما كانوا بحاجة إلى "كافيتيريا" المستشفى؛ كانوا بحاجة إلى شيء واحد هو معرفة ما يوجد داخل هذا المستشفى وما يجري فيه. وقد تحقق لهم ذلك.

شهدت الممرضة الفنلندية مارجلينا (ماريا)، زوجة الموظف المصري عرابي، على أن يوم الأربعاء كان يوماً عادياً نسبياً في المستشفى، فقد فُتحت العيادة واستقبلت عشرين مريضاً. وسمعت ماريا من المرضى أن الإسرائيليين يتقدمون في اتجاه المخيمات، وأن بعضهم وصل إلى الفاكهاني. ولاحظت أن الممرضات والمرضى الفلسطينيين انتابهم الخوف، غير أن العمل في العيادة لم يتأثر، فاستمرت تستقبل المرضى الذين كان معظمهم يشكو مرضاً عابراً كالزكام، أو جروحاً بسيطة، أو الذين جاؤوا لتغيير الضمادات. كانت تسمع أصوات الرصاص في الخارج، والانفجارات من ناحية المخيمات. ازداد القصف ليلاً، واستقبل المستشفى جرحى، كما استقبل العشرات من المخيم جاؤوا للنوم والحماية. وتفادياً لخطر القصف اتخذ القرار بالنوم في الطبقة الأرضية.[14]

قالت الممرضة نزهة أيضاً إن مئات العائلات التجأت إلى مستشفى عكا، وخصوصاً يوم الخميس، فالكل هرب من القصف. أمّا في المساء فقد أخذت الأخبار تصل عن عمليات قتل مباشرة، وليس مجرد إصابات نتيجة قصف مركز. ومن الجرحى شاب لبناني من الجنوب أطلق المهاجمون عليه الرصاص بغزارة مع مجموعة من الشباب والرجال، بعد أن أمروهم بالوقوف عند الجدار، لكنه لم يصب بغير رصاصتين في رجله، ثم تمكن من الوصول إلى المستشفى، وكذلك تمكن والده الجريح من الوصول إلى المستشفى. وعلى الرغم من تأكيد الشاب وأبيه القتل الجماعي الذي شاهدوه،

(12) Ibid.

(13) POH. S/SH. No. 35 (238/T. 35). Nuzha H. Interview by A. M. Massacre area: Narrator's house, March 6, 1983.

(14) Franklin P. Lamb, ed., Israel's War in Lebanon: Eyewitness Chronicles of the Invasion and Occupation (Boston: South End Press & Spokesman, 2nd printing, 1984), p. 586.

فالممرضة تؤكد بدورها أنهم في المستشفى لم يصدقوا ذلك![15]

تؤكد الروايةَ نفسها النرويجيةُ آن سوندي، وهي من المتخصصات بالحقل الاجتماعي، زارت بيروت أكثر من مرة، لكنها في صيف الاجتياح بدأت العمل في المستشفيات كونه العمل الرئيسي المطلوب لإنقاذ الجرحى والمصابين. وقد كانت في مستشفى عكا تلك الليلة نفسها. قالت إن المستشفى استقبل أباً وابنه في نحو الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين مساء كانا مصابين في أقدامهما، لكن الأب كان مصاباً أيضاً في صدره، وارتأى المسؤولون إرسال الأب إلى مستشفى غزة كونه أكثر استعداداً لاستقبال الحالات الصعبة. لكن إرسال الرجل المصاب كان عملية مستحيلة، وعليه فقد قام طبيب سريلانكي وممرضتان نرويجية وفرنسية بإجراء عملية مستعجلة له. وفي منتصف العملية توقف المولد الكهربائي عن العمل بسبب فراغه من المازوت، فاضطروا إلى إنهاء العملية في ضوء الشموع. كان التيار الكهربائي مقطوعاً منذ ساعات طويلة كما قالت.[16]

في أثناء إجراء العملية للأب، تروي آن سوندي عن صبية كانت تبكي بكاء هستيرياً في أسفل الدرج، فنادتها وهدأت من روعها وسألتها ما بها، فأخبرتها أنها تسكن في الحرش، وأن الرصاص أُطلق على كثيرين من الفلسطينيين واللبنانيين عند أحد الجدران، وأن أباها وأخاها كانا بينهم. أدركت آن بعد قليل أن الرجل الذي تجرى له العملية في ضوء الشموع هو أبوها، وأن هذه الفتاة التي تبدو منهارة هي التي أنقذت أباها الجريح وأوصلته إلى المستشفى. ولم تستوعب آن، كما لم يستوعب أحد في مستشفى عكا حتى تلك الساعة، أن مجزرة حقيقية تجري، وأن هؤلاء الذين سمعوا أنهم إسرائيليون يدخلون المخيمات كانوا من الميليشيات اللبنانية. كانت تقديرات الأطباء، كما قالت، أن المسألة لا تعدو أن تكون نزاعاً محلياً أو ثأراً معيناً! ووصل جريح آخر بعد قليل، وتوجه الطبيب سامي الخطيب لعلاجه.[17]

ب – صباح الجمعة في المستشفى

استيقظت آن سوندي في الساعة الخامسة صباحاً. بعد قليل سمعت عبر مكبرات الصوت أن على الناس أن يتوجهوا إلى بيوتهم حيثما كانوا، وأن يضعوا الأسلحة التي يملكونها أمام البيوت. وكانت النداءات بالعربية، فترجمها لها زملاؤها. وسرعان ما أخذ السكان الملتجئون إلى المستشفى يغادرونه. منهم من قال أنه عائد إلى شاتيلا، ومنهم من قال أنه ذاهب إلى مخيم برج البراجنة.[18]

(15) POH. S/SH. No. 35 (238/T. 35), as above.

(16) POH. S/SH. No. 52 (249/T. 51). Ann Sunde. Interview with author. Beirut: Author's house, April 6, 1983.

(17) Ibid.

(18) Ibid.

وهكذا، منذ الساعات الأولى من نهار الجمعة خلا المستشفى بصورة شبه نهائية من المئات الذين احتموا به، وهذا ما أكدته أكثر من امرأة في شهادتها؛ منهن أم كمال التي شاهدت جموع المسلحين بعينيها، واستمعت إلى تهديداتهم بأذنيها، فجر الجمعة، فعادت إلى المستشفى لتخبر الجميع كي يغادروا حالاً؛[19] كذلك شهدت سعيدة التي كانت إحدى المشاركات في مسيرة النساء، وإحدى النساء اللواتي ساقوهن في الشاحنة إلى المناطق الشرقية في الرواية السابعة "من الملجأ إلى سيارة الشحن"، على ما رأته في مستشفى عكا في ذلك الصباح الباكر. قالت أنها تمكنت، هي وأمها، على الرغم من القصف والقنص من الوصول إلى مستشفى عكا بين السادسة والسابعة صباحاً، وكانت كلتاهما من العاملات في المستشفى. وتابعت تصف الذعر الذي كان مسيطراً على الناس داخل المستشفى وفي الملجأ:

> كان في كتير ناس لسا واقفين. منهم صاروا يقولوا: "يا جماعة تعالوا كلنا نهرب." ولكن غيرهم كان يقول: "ما تخافوا يا ناس والله ما في شي." وما شفنا غير مرَه وصلت تصرخ وتقول: "في مدبحة. أهربوا هلّق بييجوا على مستشفى عكا." أنا ما عرفتها للمرَه لكن سمعتهم بقولوا: "سمعتوا يا ناس شو قالت أم كمال؟" وأنا تلفّت حواليّ لقيت ناس بعدها قاعدة وبتقول: "نحنا باقيين هون ما في شي." ولكن على باب المستشفى كان هناك جرحى عم يدخلوهم..
>
> وما حسّينا إلاّ والناس عم تمشي ورا بعضها فوج ورا فوج، في حدا قال: "إمشوا ناس ورا ناس." أنا سمعت وما عرفت مين قال. قمنا رحنا مشينا لحتى صرنا عند الجسر على طريق المطار. لكن هناك صاروا يضربوا قذايف علينا، وقفنا هناك. إمي ما عاد فيها تركض معانا، لكن نحنا كلنا هربنا، أنا وإخواتي الصغار وأختي ركضنا، وضلّينا هربانين لحد ما وصلنا على بير العبد، لقينا الناس رايحة جاية وما حدا حاسس شو عم يصير.[20]

قالت آن سوندي أنها حضرت اجتماعاً عقد في الساعة الثامنة صباحاً للأطباء والممرضات من أجل التباحث فيما عليهم أن يفعلوه. كان السؤال: الهروب أم البقاء؟ وكان القرار البقاء. وذهبت الممرضتان المسؤولتان طوال الليل للنوم والراحة، وتم توزيع العمل على البقية، فبقيت ممرضتان إحداهما فرنسية للعمل في الطوارئ، بينما بقيت ماري الأسترالية وجين لرعاية الأطفال المعاقين. كما بقيت ممرضتان عربيتان في الطبقة الأرضية، وواحدة أو اثنتان في الطبقة العلوية.[21]

في شهادة أُخرى لطبيب فلسطيني رفض ذكر اسمه الصريح جاء ما يتوافق مع شهادة آن أعلاه، إذ قال إن إدارة المستشفى عقدت اجتماعاً لأعضاء الجسم الطبي ما

(19) POH. S/SH. No. 47 (251/T. 48). "Um Kamal". Interview with author. Massacre area: Narrator's house, April 1, 1983.

(20) POH. S/SH. No. 46 (234/T. 47), as above

(21) POH. S/SH. No. 52 (249/T. 51), as above.

بين الثامنة والتاسعة صباحاً، وكان هناك مجموعة تؤيد الخروج، ومجموعة أُخرى تؤيد البقاء في المستشفى والصمود. وفي النهاية اتخذ القرار بعدم الخروج. وقال الطبيب إن أقصى توقعاتهم كان التعرض للاعتقال من قبل الإسرائيليين، وقال أيضاً أنهم كانوا واثقين بأن "اصطيادهم" كان سهلاً جداً في حال مغادرتهم المستشفى، فهم محاصرون من كل الجهات. لذلك كان بقاؤهم داخل المستشفى أكثر حماية لهم جميعاً، وخصوصاً للفلسطينيين منهم.[22]

لكن هذا الطبيب، الذي كان المسؤول الأول في المستشفى، رفض حتى إجلاء الأطفال المرضى بينما كان رأي الطبيب سامي الخطيب وسواه إجلاء الأطفال، ثم كان هو من أول من غادر المستشفى مع ثلاثة آخرين فور اقتحام المهاجمين.[23]

لم ينكر الطبيب المسؤول نفسه ذلك، وقد روى لي أنه غادر مع طبيب زميل آخر واثنين من الموظفين قبيل دخول القوات اللبنانية عن طريق بناية يعقوبيان، فدخل الرجال الأربعة المبنى وخرجوا من مخرج آخر حيث كان الإسرائيليون، لكنهم لم يتعرضوا لهم. وتقدم شاب فأوصلهم إلى حارة حريك.[24] والواقع أن كل الذين هربوا من المستشفى من أطباء وممرضات نجحوا في ذلك، باستثناء الطبيب علي عثمان.

كان الحدث الأبرز في صباح ذلك اليوم الطويل المشحون بالمآسي في مستشفى عكا مقتل عرابي، الموظف المصري في قسم الأشعة. كان عرابي نموذجاً للموظف المحبوب النشيط، وقد بكاه كل من عرفه. تقول الممرضة نزهة إنه في الساعة العاشرة صباحاً ذهب عرابي "لَيْجيب السيارة لجوّا"، وغيرها يقول إنه خرج لينجو بنفسه. لكن نهاية عرابي متفق عليها، وهي أنه ما كاد يخرج ويمر من جانب المستشفى المواجه للمحطة حتى أردوه. في الوقت نفسه خرجت عاملة مصرية لتشتري "علبة دخان" للطبيب سامي، فأصابوها هي الأُخرى برصاص القنص عند باب المستشفى، وماتت.[25]

يقول الطبيب الفلسطيني المسؤول، الذي رفض إعطاء اسمه، إن عرابي قتل بعد الاجتماع الذي عقدوه مباشرة، ووجد بعد الكشف على جثته رصاصة في جهة الكبد، وثغرة في وجهه إلى جهة اليمين، كما أصابه كسر في رجله اليسرى، وكسر في المفصل. ويعقب الطبيب إنه من الواضح أن عرابي لم يقتل بالرصاص وحده، بل بشظايا قذيفة أيضاً.[26]

(22) POH. S/SH. No. 113 (241/N. 22). M. Kh. Interview with author. Beirut: Narrator's office, June 5, 1984.
(23) POH. S/SH. No. 52 (249/T. 51), as above.
(24) POH. S/SH. No. 113 (241/N. 22), as above.
(25) POH. S/SH. No. 35 (238/T. 35), as above.
(26) POH. S/SH. No. 113 (241/N. 22), as above.

تقول آن سوندي أنها لم تعرف بمقتل عرابي في حينه. كان قد لفت انتباهها حريق شب في منزل يقع خلف محطة الوقود، وكان الحريق يتصاعد من سقف المنزل ذي اللون القريب من الأحمر. في تلك اللحظات دخل رجل مصاب بجروح بالغة، وكان هذا الرجل واقفاً في محطة الوقود، وهو الذي أخبرهم بإصابة اثنين آخرين في المحطة، فهل يكون عرابي أحدهما؟

لم يكن عرابي بالنسبة إلى آن صديقاً حميماً فحسب، بل كان أيضاً زميلاً مثالياً عملا معاً في قسم التخطيط، وطالما شربت الشاي معه ومع زوجته ماريا في المستشفى، وقد كانا بالنسبة إليها من أحب من عرفت في بيروت.

حاول الممرض الفرنسي أن يتعرف على المصابين في محطة الوقود، فصعد إلى غرفة الطوارئ، وتمدد بهدوء حتى تمكن من رؤية جسد ممدد بشكل مواز لمدخل الطوارئ، وقال لزملائه إنه ليس عرابي. كذلك حاولت آن أن تتعرف على المصاب الآخر بدورها، لكنها لم تتمكن من ذلك، فزحفت نحو الشرفة ورفعت رأسها قليلاً فوق جدار الشرفة، وتمكنت من أن ترى الرجل المصاب الممدد على الأرض، ولمّا رأته طويل القامة، طمأنت نفسها بقولها: "صحيح، هذا ليس عرابي. إنه أطول قامة بكثير."[27]

كان الهم الأكبر للطبيب سامي الخطيب أن يتمكن من جلب اللذين أصيبا في محطة الوقود لعله يستطيع إنقاذهما أو إنقاذ أحدهما. ولمّا سمع الطبيب صوت سيارة "رينو 5" تقف في الخارج، أرسل حالاً يستفسر عن صاحبها. واتضح أن سائق السيارة امرأة لا يعرفونها، فنادوها، وقبلت المرأة حالاً أن تعطيهم سيارتها لعمل إنساني. فجاءت عاملة مصرية تعمل في مطبخ المستشفى وساقت السيارة، بينما استلقت آن والممرضة إريكا في المقعد الخلفي كي لا يظهر رأساهما. ساقت العاملة المصرية السيارة قليلاً إلى اليمين، ثم قطعت الطريق واحتمت بين البيوت، ثم سارت في خط مستقيم على الطريق ثانية نحو محطة الوقود. ولكن ما إن وصلن ثلاثتهن إلى هناك حتى اكتشفن أن الرجل الممدد كان عرابي. وتصف آن تلك اللحظات:

> لا أدري لماذا بدا لنا من شرفة المستشفى أطول.
>
> كان عرابي قد اختفى لبعض الوقت، ولم يخبر زوجته إلى أين هو ذاهب.
>
> لقد عرفناه من ثيابه ومن الكيس الذي يحمله. أمّا وجهه فكان من المستحيل التعرف عليه. كانت كل الجهة اليسرى من خده[28] قد طارت (was blown out)، ولا أعلم أي نوع من الرصاص استعملوا. كان هناك عدة بقع تنزف من عدة أجزاء من جسمه. وتمكنا من سحبه إلى السيارة أنا وإريكا.. نظرت في غرفة الطوارئ إلى ساعته.. فرأيتها في تمام الساعة العاشرة والدقيقة الحادية والخمسين. وضعنا

(27) POH. S/SH. No. 52 (249/T. 51), as above.

(28) في شهادة أُخرى سابقة لطبيب فلسطيني أنها الجهة اليمنى لا اليسرى (أنظر الصفحة السابقة). وفيما عدا هذا الفارق، فالشهادات كلها توافقت على إصابته البالغة في وجهه، مع إصابات متعددة في جسمه.

حوائجه جانباً. وما كاد الطبيب ينتهي من تكفينه (wrapping him) ويذهب ليخبر زوجته بما جرى، حتى شاهدنا مسلحاً يقف بالباب.[29]

تحدثت زوجة عرابي، الممرضة ماريا، عن المرة الأخيرة التي رأت فيها زوجها، فقالت أنها بحثت في الوضع معه صباح الجمعة وهما يرشفان القهوة، وتوقعا أن يكون اليوم يوماً مشحوناً، وخصوصاً بعد الفراغ الذي شهده المستشفى بخروج اللاجئين المحتمين به، الذين سمعوا بمكبرات الصوت أن على الجميع أن يذهبوا إلى بيوتهم ولا شيء سيصيبهم. وتوقعت ماريا صعوبة في تقديم المعونات الطبية للمرضى بسبب النقص في المعدات الطبية. وروت أن جريحاً جاء في نحو التاسعة صباحاً، وهو مصري يعمل في محطة الوقود القريبة، وسمعته يتكلم عن زوجها، لكنها لم تفهم تماماً ماذا قال، وإن تكن أدركت أن شيئاً سيئاً قد حدث. فذهبت إلى غرفة الطوارئ، ثم إلى قسم العناية الفائقة حيث الفريق الطبي النرويجي، ولم تلاحظ شيئاً، ولم تعلم شيئاً حتى جاء الطبيب السريلانكي راشا وقال لها إن زوجها عرابي مات نتيجة إطلاق النار والانفجار.

وكان تعليق الزوجة التي جاءت من صقيع فنلندا إلى جحيم حرب لا تنتهي حتى لو انتهت: "انتابني شعور بأن الدنيا كلها كانت تتقلص؟"[30]

ج – نرويجية في مستشفى عكا

في الساعة الحادية عشرة كان الاقتحام.

كان المقتحمون متوترين وينظرون يمنة ويسرة بحثاً عن "مخربين".

أمّا في أثناء وجودهم في المستشفى في ذلك النهار، فقد كان لديهم الوقت الكافي ليتعاملوا مع كل من الموجودين في المستشفى، أطباء وعاملين ومرضى، معاملة متفاوتة وفقاً للجنسية أحياناً، ووفقاً للمزاج أحياناً أُخرى؛ وهي معاملة تراوحت بين المعاملة بالحسنى وبين التعذيب والاغتصاب والقتل الوحشي.

كانت الممرضة الفرنسية إريكا أول من لاحظ قدومهم، فجاءت مسرعة تنادي الطبيب سامي. أسرع الطبيب ومن حوله ليشاهدوا مسلحاً يتقدم مجموعة عبرت المدخل الرئيسي، وهو يزعق بصوت عصبي وعنيف جداً، وكأنه يتوقع معارضة مسلحة. حاولت آن أن تسأل إن كان ممكناً لها أن تأتي بجواز سفرها. لم يسمح لها بذلك. فسألته حينذاك بالعربية المحدودة التي تعرفها: "إنتو مين؟" فجاءها الجواب بالإنكليزية أنهم "Phalangists". وعادت تسأل الرجلين المسلحين اللذين كانا واقفين أمامها عما يبحثان. وجاء الجواب أنهما يبحثان عن جنود، عن مقاتلين، عن مخربين!

(29) POH. S/SH. No. 52 (249/T. 51), as above.

(30) Testimony of "Marjaleena Oraby, Nurse, Finland," as cited in Lamb, ed., op. cit., p. 587.

هي لا تستطيع أن تؤكد أية لفظة استُعملت، لكنها تذكر جوابها بأنه لا يوجد جندي مسلح واحد في المبنى، فالكل مدنيون. كذلك لا يوجد فيه أي سلاح على الإطلاق. استوعب المسلح الثاني كلامها وسمح لها بأن تذهب وتأتي بجواز سفرها.(31)

مسلحون آخرون كانوا يجمعون الممرضات وكل العاملين في المستشفى من غرفهم. كانت الممرضة النرويجية أستريد باركفيد ما زالت نائمة في غرفتها مرهقة بعد سهر نوبة الليل الطويل، وما إن فتحت عينيها حتى رأتهم فوق رأسها، وقالوا لها أنهم "فالانج"، لكنها لم تلاحظ أية شارات على لباسهم. وسرعان ما سمعت أصوات هؤلاء الجنود وهم يصرخون من غرفة إلى أُخرى بحثاً عن جنود فلسطينيين.(32)

بقيت الممرضة أستريد النرويجية للعناية بالأطفال، بينما بقيت ماري الأسترالية وجين مع الأطفال المعاقين، وغادرت آن باب المستشفى في حراسة مسلح لقّن بندقيته على أتم استعداد لاستعمالها إن لزم الأمر. غير أن المسلحين كانوا في واقع الأمر مضطربين ولا يصدقون أن المستشفى خال من المقاتلين، فتضاربت أوامرهم. قال لها مسلح في الخارج بصيغة الأمر: "تعالي إلى هنا". بينما في اللحظة نفسها جاء مسلح آخر ليقول لها: "قفي مكانك". ولمّا كانت آن قوية الشخصية وهادئة بطبيعتها، فقد تمالكت نفسها وقالت لهم بالإنكليزية: "من أطيع منكم؟ الواحد يقول كلاماً مناقضاً للآخر. فإذا فعلت ما يقوله أي منكم، وقعت في مشكلة." وحلت المشكلة بأن طلبوا منها أن تخرج فخرجت، ومشت إلى جانبها العاملة المصرية التي قادت سيارة الرينو قبل قليل لحمل جثمان عرابي إلى المستشفى، ومشى آخرون. وسرعان ما لاحظ الجميع أن الأجانب يسيرون في طابور، بينما يسير الفلسطينيون في طابور آخر.

نظرت آن إلى الأمام عبر الشارع فرأت المسلحين يجلسون أمام بيوت حرش ثابت حتى مدخل شاتيلا الرئيسي، وتعتقد أنهم كانوا نحو خمسة عشر مسلحاً. كذلك كان عند المستديرة خمسة أو ستة آخرون. وكان يوجد عند تقاطع الطرق بين الشارع الرئيسي (شارع السفارة الكويتية) ومدخل شاتيلا مجموعة أُخرى من المسلحين يبلغ عدد أفرادها ما بين العشرة والخمسة عشر مسلحاً. وما بين هذه النقاط المسلحة أعطت آن جواز السفر، فتأكدوا من كونها أجنبية وقالوا إن لا مشكلة هناك.(33)

وصل السكرتير الأول في السفارة النرويجية كي يعود بالنرويجيين من أعضاء الجسم الطبي في المستشفى، ووافق المسلحون على طلبه. هل ترضى آن بذلك قبل أن تطمئن إلى مصير زملائها الآخرين؟ كانت في تلك اللحظات الحرجة حزينة وغاضبة

(31) POH. S/SH. No. 52 (249/T. 51), as above.

(32) Testimony of "Astrid Barkved, Health Worker, Norway," as cited in Lamb, ed., op. cit., p. 608.

(33) POH. S/SH. No. 52 (249/T. 51), as above.

على مصـرع عرابي، وكيف تنسـى أنه مـا زال جثة ممددة في الطوارئ، وأن غيره مـهدد بـالمصـير نفسـه، بينمـا السـكرتير الأول جاء ليحمي أبنـاء بلده. ولعله كان على حق. تصف آن تلك اللحظات الحرجة بقولها:

> كان قراراً من أصـعب القرارات في حياتي، وعليّ أن أتخذه في جزء من الثانية. هل أركب السيارة معه؟ هل أترك أصدقائي وأغادر المكان، أم أبقى؟
>
> لم أكن لأعلم مـاذا يمكن أن يجري، ذلك بـأن مجموعـة الجنود (الميليشـيـا) كـانت مهذبة ولم نكن نعلم في تلك اللحظات مـا حدث في المخيمـات فعلاً. ولم أجد نفسـي إلاّ وأنـا في السيارة بدافع غريزي لا إرادي.
>
> لمّا سـمحوا لنـا بـالعودة ثانية إلى المسـتشـفى، سـمحوا لنـا بـأن نـأخذ أسـتريد معنـا، وسمحوا لي بـأن آتي بحقيبتي التي كان أهم مـا فيهـا أفلام عن الأيـام السابقة. سألتهم إن كنـا نسـتطيع أن نـأخذ معنـا الأطفـال، فوافقوا. وأخذنـا أربعـة أطفـال. وكـان هنـاك طفل خـامس في تلك الغرفة لم نجرؤ على حمله معنا لصـعوبة حالته، فهو بحاجة إلى سيارة إسعاف.[34]

من التنـاقضـات بين المسـلحين أنفسـهم، أن أحدهم سـأل بـالفرنسـية إن كان لدى السكرتير الأول في السـفـارة النرويجية سـيـارة كبيرة تسـع بقية الأطفـال. وكـان الجواب أنه لا توجد سـيـارة كبيرة، وانتهى الجواب بسـؤال مماثل من النرويجي: "هل لديكم أنتم سـيـارة لنقل بقية الأطفـال؟" ورد المسـلح بقوله إنه ليس لديهم. وتم الاتفـاق على إمكان العودة لأخذ بقية الأطفـال. لكن لن يكون هنـاك أطفـال لأخذهم فيمـا بعد!!

لاحظت آن سـوندي في طريق العودة اختفـاء الأصـدقـاء والزملاء الذين كـانوا أوقفوهم بـالقرب من مدخل شـاتيلا، ولاحظت وجود شـاحنـة كبيرة مقدمهـا مواجه لمستديرة المطار كـان نصـفهـا مملوءاً بـالشبـاب والرجـال، ودققت في وجوه هؤلاء لكنهـا لم تجد بينهم من تعرف.

وصـلت السـيـارة الدبلومـاسـية أخيراً إلى مسـتشـفى الجـامعة الأميركية، ورفضـت الإدارة في بـادئ الأمر استقبـال هؤلاء الأطفـال المرضى لصعوبة حـالاتهم، ومـا كـان في استطـاعة آن أن تكشف عن هوية الأطفـال وأنهم من مستشفى عكا لأنهـا – كمـا قـالت – لم تكن تعلم من تكلم، ووجدت الطريقة المثلى في إقنـاعهم ببقـاء ممرضة معهم للاعتنـاء بهم، وهكذا بقيت الممرضة أستريد.[35]

تتوقف تجربة آن سـوندي في مسـتشـفى عكا، لتبدأ في اليوم نفسـه تجربتهـا في مستشفى غزة؛ فهي "النرويجية" التي تمكنت من الوصـول إلى مستشفى غزة وإبلاغهم مـا جرى في مستشفى عكا.

---

(34) Ibid.
(35) Ibid.

د – فلسطينية في مستشفى عكا

تختلف تجربة نزهة، الممرضة الفلسطينية، عن تجربة آن النرويجية اختلافاً بيناً. التجربة في بداية النهار كانت متشابهة، فكل منهما كانت انتهت من "حمّام" الصباح وهي تستمع إلى النداءات عبر مكبرات الصوت بالتسليم، لكن الاختلاف البين في التجربة ابتدأ منذ تلك اللحظات.

كانت نزهة ما زالت ترتدي ثيابها وهي تستمع وتستوعب لأول مرة أن ما يجري شيء خطر. وهي تقول:

> مقر الهلال الأحمر كان في بناية مجاورة في الطابق الرابع. تطلعت هيك وإلاّ بيصرخوا بالميكروفون. الميكروفون كإني شايفته هلّق، الباب تبعه أبيض والمسكة من ورا حمرا. صاروا يعيطوا ويقولوا سلموا بتسلموا. وإذا كان في مخربين وإذا كان في أي شي وما مسترجي يعطينا السلاح بيرمي السلاح بالشارع وبيهرب. بيرمي السلاح إذا كان فزعان وبيهرب.[36]

أكملت نزهة ارتداء ثيابها وغادرت المنزل إلى المستشفى حيث رأت الطبيب سامي، وقالت له: "منشان الله يا دكتور سامي خلّينا نهرب." فرد عليها بقوله: "يا نزهة إسرائيل فاتت على الجنوب وأهلك هلّق ساكنين بالجنوب، حكَتْ معهم؟ يعني حكَت مع النسوان والأطفال؟ ما حكَتْ معهم." أدركت نزهة أن الطبيب يرفض تصديق أن هؤلاء كتائب وليسوا إسرائيليين. وهي تصف يأسها في تلك اللحظات:

> أنا صرت أبكي وأعبطه للدكتور وأبوس إيديه حتى يخلّينا نهرب، ما كان يخلّينا أبداً. قال: "معقولة نترك ونهرب؟"
>
> وهيك بقينا، لحتى وصلوا لعنا.
>
> كان الدكتور سامي عم يكفن عرابي، وقميصه غارق دم. قلّي: "اطلعي يا نزهة جيبيلي قميص نضيف لألبسه." قلتلّو: "ما مسترجية يا حكيم". وصرت أبكي. قلّي، وهو فكره عم يشجعني: "والله إن ما طلعت لأرميك من الشباك. كل ها القد جبانة؟" وردّيت عليه: "أنا مش جبانة يا حكيم، بس أنا خايفة، لأنو هاي كتايب..."
>
> وأنا بس حسّيت إنهم دخلوا من مدخل الطوارئ، ما لقيت حالي إلاّ وأنا بهرب من المدخل التاني للطوارئ. وكان معي تلات بنات رفقاتي. كنا كلنا هربانين مع بعض، وكان معنا طفل صغير كمان هرّبناه معنا.
>
> على الطريق شفنا دبابة إسرائيلية قلنالهم شو صار معنا في المستشفى وعن الحالات اللّي وصلت لعنا؛ عن قتل الناس بالرصاص والدبح. صاروا الإسرائيلية يضحكوا علينا ويقولولنا: "روخ.. روخ.. خبيبي ما تخاف."[37]

وصلت نزهة مع رفيقاتها إلى مخيم برج البراجنة. نمن ليلتهن هناك. وعادت في

(36) POH. S/SH. No. 35 (238/T. 35), as above.
(37) Ibid.

اليوم التالي إلى المستشفى لتأخذ هويتها وحقيبتها وما تركته من راتبها الشهري، إذ كانت لا تملك من المال ما يوصلها إلى صور، حيث أهلها. لكنها لم تجد أحداً تعرفه في المستشفى. لا أحد هناك. وجدت شباباً من الصليب الأحمر اللبناني فسألوها: لم تبكين؟ وما إن عرفوا أنها ممرضة حتى صعد معها بعضهم إلى الطبقة الرابعة في مبنى مسكن الممرضات. هناك وجدت نزهة حقيبة يدها، لكنها فارغة من الهوية ومن بقية الراتب.

لم تقف نزهة حائرة بل شعرت بواجبها كممرضة منذ تلك اللحظة، وما عادت تفكر في الهروب إلى صور، وإنما قررت البقاء، وراحت تدقق فيما جرى في المستشفى.[38]

هـ – لبنانية في مستشفى عكا

تختلف تجربة شابة لبنانية عن التجربتين السابقتين لنرويجية وفلسطينية في مستشفى عكا، بداية ونهاية. إنها تجربة رندة التي أنقذت أباها الجريح في الرواية السادسة عشرة، والتي نامت في مستشفى عكا مع والدها بعد أن أكملوا له العملية الجراحية يوم الخميس ليلاً في ضوء الشموع.

شاهدت رندة تصرفات المسلحين منذ دخولهم مستشفى عكا. وشهدت أنهم لم يكونوا مهذبين معها كما كانوا مع الأجانب، لكنهم ما كانوا شرسين كما كانوا مع الفلسطينيين.

كانت رندة واقفة بالقرب من الباب، فلم تشعر إلاّ وهم عند الباب وفي المدخل. وتقول: "فاجأونا وأخدوا يدفشوا فينا وينزلونا لتحت." وكان عددهم كثيراً جداً، وخصوصاً مع الواقفين في الخارج بين محطة الوقود والمستشفى. وحمدت رندة الله على أن السكان المحتمين بملجأ المستشفى كانوا غادروه، وإلاّ كانت الكارثة أعظم. تقول:

> أنا لمّا دخلوا لجوّا ركضت لعند بيّي، وقلتلّو: "إجو الإسرائيلية يا بيي." لكن همّي كانوا وراي قالولي: "لأ. إحنا سعد حداد وكتايب."
>
> وإجا واحد قعد حدّي على سرير بيّي، وقلّي: "ما تفزعي. نحنا لبنانية متلك." قلتلّو: "بس إنتوا قتلتونا. ليه قتلتونا؟ هاي بيّي وخيّي متصاوبين. وفي إلي خيّ انقتل. وأنا متأكدة إنو جتته بعدها بالأرض. وإمي وخيّاتي بعد ما منعرف شو صار فيهم."
>
> قلّي: "لكن إحنا ما فتنا على منطقة الحرش أبداً."
>
> طبعاً عرفت عم يكذب. وإذا كان صادق إنّو هوّ ما فات، في غيره من رفقاته فاتوا. لكن شو بدّي إحكي. مضى الوقت وهمّي ساعة يقولولنا بدنا قهوة، وساعة بدنا شاي، أو قوموا هاتولنا مي بدنا نشرب. ما خوّفونا بالأول، وصحيح صاروا يمزحوا ويضحكوا معنا، لكن عاملونا برضه زي الخدم.

(38) Ibid.

في واحد منهم جرّب يحكي على جهاز اللاسلكي وما عرف، أو كان يمكن عم يجرّبني. إجا قلّي: "تعي إنت فوتي إحكي." قلتلّو: "أنا صرلي بس من امبارح هون وما بعرف استعمل اللاسلكي. بعدين أنا لبنانية مش فلسطينية." قال: "نحنا عارفين إنك لبنانية. ليش قاعدة معاهم؟" قلتلّو: "طيّب فينا إحنا نستأجر بيت بألفين أو بألف ليرة. إحنا الله يساعدنا كلنا بنات وكلنا منشتغل ومنقدم لبيّي."[39]

لم تشهد رندة مقتل أحد أمامها، لكنها سمعت الرصاص حين قتلوا الممرضة انتصار. وقد تحدثت عن ممرضة أُخرى تمكنت من النجاة بنفسها حين قالت لهم أنها ستعود حالاً بعد أن تأتي بالماء، فغافلتهم ورمت نفسها من غرفة أُخرى إلى الخارج، وقد ساعدها ناس فأوقفوا لها سيارة أوصلتها إلى حارة حريك.

لم تحتمل رندة البقاء أكثر من الساعة الثالثة. ادعت أنها جائعة، فقالوا لها: "نحنا منجيبلك أكل. وبعدين إنت قلت إنك باقية للساعة خمسة." أجابتهم بأنها ستذهب إلى الشياح حيث يقطن عمها وعائلته وهم في انتظارها. أمّا السبب في قرارها الخروج وترك أبيها وأخيها فكان الخوف الذي اعتراها من سوء أدبهم والكلام الفاحش الذي أسمعوها إياه، وقد تمادى بعضهم في قلة الأدب، فخافت من مصير كمصير اللواتي سمعت عما جرى لهن. وقالت في نفسها إن الله سبحانه وتعالى يحمي أباها وأخاها، لكنها لا تستطيع ذلك بمفردها. وتمكنت رندة من إنقاذ فتاة فلسطينية معها وهي خارجة، فادعت أنها تعرفها وأنها لبنانية من بلدتها في الجنوب. وكانت الفتاة قد مزقت بطاقتها الشخصية ثم أحرقتها.

تنفست الاثنتان الصعداء في الخارج، واسترعى انتباه كل منهما أن الإسرائيليين كانوا غادروا مكانهم تحت جسر المطار.[40]

و – مصير الممرضات

روت ممرضة لبنانية في مستشفى عكا لمراسلة صحيفة "ليبراسيون"، مايا ثابت:

في الساعة الحادية عشرة اقتحم المستشفى رجال... يتكلمون العربية والإنكليزية... كانوا في غاية الاضطراب، وبلهجة عسكرية طلبوا من جميع العاملين الأجانب بالمستشفى وعددهم يتجاوز أحد عشر طبيباً وممرضاً أن يخرجوا من المستشفى رافعين أيديهم في الهواء... وبقيت ممرضتان تعتنيان بثمانية جرحى وخمسة أطفال معوقين، كما بقي أطفال رضّع آخرون.

على مدخل شاتيلا طلب منا ضابط إسرائيلي العودة إلى المستشفى وإغلاقه في وجه الجرحى والقتلى، لكنهم احتفظوا بطبيب فلسطيني كان معنا، وما عدنا رأيناه منذ ذلك الوقت [تقصد الطبيب سامي الخطيب].

(39) POH. S/SH. No. 37 (236/T. 36). Randa F. Interview by A. M. Massacre area: Narrator's house, March 9, 1983.

(40) Ibid.

عدنا إلى المستشفى واكتشفنا أن أربعة جرحى اختطفوا، ولكن الممرضتين ما تزالان هناك. وبعد الظهر جاء وفد الصليب الأحمر للاطمئنان علينا، وأخذ أسماءنا، عندئذ اكتشفنا أن الممرضتين اختفتا. وقال لنا الطبيب أنه رأى المسلحين يخنقون الممرضتين خلف البناية.

إحدى الممرضات الفلسطينيات كانت معنا، ذهبت للبحث عن أختها التي التجأت في بيت قريب من المستشفى فوجدتها عارية ملطخة بالدم.. ومقتولة خنقاً.[41]

يروي طوني، وهو مواطن لبناني يسكن في مبنى مجاور لمستشفى عكا، كيف عاد إلى منزله لتفقده بعد طول غياب خلال الحصار الإسرائيلي لبيروت. وكان سبب غيابه القسري عن بيته أنه مسيحي؛ فمنطق الحروب الأهلية الطائفية يفرض العزل السكاني لكل طائفة، ولأي طائفة كانت، في كل مكان، وهكذا كان في لبنان.

يروي طوني كيف اضطر إلى الاحتماء بمنزله من الرصاص، فقد كان في الخارج عدد من المسلحين يصوبون بنادقهم الرشاشة نحو المستشفى، وقد شاهدهم من إحدى النوافذ، كما تمكن من مشاهدة ما جرى لممرضتين من المستشفى. الممرضة الأولى شاهدها عندما فتح باب بيته ليرى ما يجري في الخارج. كانت تجلس القرفصاء في ركن من الدرج خائفة مذعورة. دعاها إلى الاحتماء بمنزله، لكنها أشارت إلى الجهة الأُخرى التي كانت أصوات الرصاص تأتي منها. ومرت ساعة كاملة تشجع بعدها وفتح نافذة جانبية، وهناك شاهد عدداً من الجنود يغتصب ممرضة أُخرى. وقد كانت تستنجد بصوت مخنوق، وكانت تبكي. ثم رأى نهاية الجريمة: قتلوها بالرصاص.[42]

مضت ساعتان بعد هذه الجريمة كانوا خلالهما قد عادوا إلى الممرضة المذعورة، فقيدوها بالحبال، واغتصبوها، ورحلوا..

عاد طوني يفتح بابه ليعرف ما حل بالممرضة المذعورة، فوجدها مكانها، لكنها تحولت إلى ضحية مشلوحة في الممر، وما كاد يهم بالصلاة من أجلها كما صلى لراحة نفس زميلتها، حتى انهمر رصاص قريب، فأصيب في ساقه اليمنى. التفت إلى مصدر النار فأدرك أن من أطلق النار عليه كان أحد أقربائه. أمر المسؤول عن المجموعة ذلك المسلح بالإجهاز عليه، لكن المسلح كان بدوره قد أدرك أنه أطلق النار على قريبه، فرفض الأمر بالإجهاز عليه. ولولا تلك المصادفة، لما عاش طوني.[43]

ربما كانت الممرضة الثانية هي نفسها الممرضة التي وجدت في ملجأ المبنى المجاور، أي المبنى الذي يسكن فيه الراوي طوني. لكن لم يكن سهلاً التعرف على جثتها،

(41) نشرة "وفا" (بيروت)، 1982/10/21؛ نقلت النشرة أقوال الممرضة كما روتها لمراسلة صحيفة Liberation، مايا ثابت.

(42) المصدر نفسه، 1982/10/24.

(43) المصدر نفسه.

إذ تم التعرف عليها من شعرها و"صندلها"، وقد ظهر أنها اغتصبت حتى الموت.[44]

أمّا الممرضة انتصار فقد تكون إحدى هاتين الممرضتين اللتين شاهد طوني ما حل بهما. ويروي ما جرى لانتصار موظف الأشعة نقلاً عن زملائه وزميلاته في المستشفى؛ هؤلاء يروون كيف اقتادها المسلحون إلى الملجأ، بالقوة، شدوا شعرها وأنزلوها وهي تصيح أن يقتلوها. وهم فعلاً قتلوها، لكن بعد أن اغتصبوها عدة مرات. وبعد أن انتهوا من عملهم جروها إلى محطة الوقود، فأمسكت بخزان الوقود تحتمي به، أو كما يروي أحد زملائها: "وتعبّطت محل ما بعبّوا بنزين، تعبّطت فيها وبلشوا يتناشنوا عليها. خردقوها تخردق."[45]

تروي الممرضة نزهة، التي كانت تمكنت من الهروب ثم العودة، أنه طلب منها أن تذهب إلى مستشفى الجامعة الأميركية للتعرف على جثة زميلتها الممرضة انتصار، إذ لا أحد من أهلها في بيروت، فهم من سكان طرابلس، وذهبت، وتعرفت عليها:

> الممرضة اللّي قتلوها انتصار رفيقتي كنت أنام أنا واياها في غرفة واحدة، قلتلها تهرب معاي، لكن ما كانت تهرب، لأنّو في معنا واحدة لبنانية كانت تداوم اسمها سناء كانت بدها تضل معها وهي تقول إذا فاتوا لعنا ما بيحكوا معي، بدّي أقولهم أنا لبنانية من بعلبك.
>
> لكن لمّا فاتوا عرفوها فلسطينية. عرفوها من لهجتها حالاً. اعتدوا عليها وقتلوها. وهيّ ما وفرتهم. شتمتهم وقاومت قد ما تقدر. في ناس سمعوا وحكولي.
>
> ويا ريتني ما رحت حتى أتعرف على الجثة. ما في أصعب من شوفة أغلى الناس مشوهين على ها الصورة. لكن ما ممكن ما أتعرف على صديقتي؟ ممكن تموت وما حدا يشوفها ويؤكد إنّو هاي انتصار؟
>
> إرحمها يا رب.[46]

ز – مصير الأطباء والعاملين

لم يكن مصير الأطباء أقل وحشية من مصير الممرضات. اثنان منهم عذبا وقتلا، وهما الطبيب علي عثمان والطبيب سامي الخطيب، وكلاهما فلسطيني.

الطبيب علي عثمان متزوج بامرأة سوفياتية ولهما ابن. كان مع مجموعة الأطباء والعاملين في المستشفى الذين نادوهم منذ اللحظات الأولى كي يخرجوا. ولمّا صاحوا عليه ليقترب، قال لهم أن يمهلوه كي يدخل المستشفى ويعود بزوجته. من الواضح أنهم ظنوها فلسطينية، وبالتالي، غنماً جديداً، فسمحوا له بذلك. لكنه ما إن دخل المبنى حتى قفز من النافذة إلى الحديقة التي تطل عليها بناية يعقوبيان، ولم يتحمل الطبيب عثمان القفزة، إذ وقع على رجله المكسورة سابقاً، ولم يتمكن من الهروب بسرعة. أخذ

(44) Lamb, ed., op. cit., p. 589.
(45) POH. S/SH. No. 54 (230/T. 53), as above.
(46) POH. S/SH. No. 35 (238/T. 35), as above.

يمشـــي ببطء خطوة خطوة، إلى أن دخل بناية يعقوبيان، ورأى صـــاحب البناية عند المدخل، وكان كل منهما يعرف الآخر، فقال له أنه يريد الاختباء عنده، واختبأ فعلاً في الطبقة الرابعة.

قال يعقوبيان لموظفين في مســتشــفى عكا، فيما بعد، إن المســلحين جاؤوا إليه وســـألوه إن كان أحد اختبأ عنده، فأجابهم: "ما بعرف". وكان معه ثلاثمئة ألف ليرة فاستولوا على ما معه من مال، وفتشوا المبنى.[47]

أمّا الطبيب علي عثمان فقد وجدوه في الطبقة الرابعة. ويروي موظف الأشعة:

> طلعوا جابوا الدكتور عثمان. عذّبوه عذاب مش معقول. يعني في بنت شـــاهدة وموجودة. شـافتهم بعيونها. حكيت معي وقالت إنها شـافت اسـنانه مكسّـرة ومرمية لبرّا. وشـافتهم عم يشـحطوه شـحط على الأرض. وهو عم يصـرخ ويقول: "دخيلكم.." ولحد هلّق مش معروف شـــي عن الدكتور علي عثمان. بقولوا إنهم قتلوه. والطبيعي يكونوا قتلوه. لكن الجتة ما بيّنت!! وكمان ما التقت جتة الدكتور ســـامي الخطيب. أبداً ما التقت.[48]

وجد دليل واحد على مقتل الطبيب علي عثمان، وهو قطعة المعدن التي كانت داخل رجله الاصطناعية، فلمّا شوهدت الرجل الاصطناعية على الطريق، عرفوا أنه قتل. كان علي عثمان طبيباً متخصـصـاً بالأمراض الداخلية، وكان أنهى تخصـصـه في الاتحاد السوفياتي وعاد إلى بيروت مع زوجته وابنهما الوحيد في نهاية سنة 1981. كان في منتصف الثلاثينات من العمر، وطبيباً مخلصاً في عمله ومحبوباً.[49]

أمّا الطبيب ســامي الخطيب فكان أحد الذين اقتيدوا إلى خارج المســتشــفى بأوامر من القوات اللبنـانيـة، وليس بعيداً عن مكـان تجميع العـاملين في المســـتشـــفى، وقف الســـكرتير الأول في الســـفـارة النرويجيـة يفـاوض المســـلحين بشـــأن أخذ الرعـايـا النرويجيين.

قالت آن سوندي أنها في أثناء الحوار لاحظت أن الطبيب سامي الخطيب فُصل عن المجموعة واقتيد إلى مدخل شاتيلا الرئيسي، فتوجهت حالاً نحوه. هناك كان يقف إزاء الحائط، ومعه عشرة أو خمسة عشر آخرين. ولمّا اقتربت منه سمعته يطلب من المسلحين السماح له بالعودة إلى المستشفى كونه طبيب الأطفال الوحيد، والمستشفى بحاجة إليه بسبب وجود الكثير من الأطفال المرضى. وسمعتهم يسألون بعضهم البعض بالعربية عنها: "مين هاي؟" فأجابتهم بأنها نرويجية. هنا قال لها أحد المســلحين بالإنكليزية: "إذهبي حالاً حيث تقف مجموعتك." وقال لها الطبيب ســـامي، بالإنكليزية أيضـــاً: "لا

(47) Ibid.; POH. S/SH. No. 54 (230/T. 53), as above; POH. S/SH. No. 13 (238/T. 9), as above.

(48) POH. S/SH. No. 54 (230/T. 53), as above.

(49) POH. S/SH. No. 52 (230/T. 51), as above.

تقلقي. إرجعي أرجوك."[50]

عادت آن إلى حيث يقف الأجانب، مميزين من الفلسطينيين، على الرغم منها.

وكما علمنا أعلاه فقد سمح للسكرتير الأول في السفارة النرويجية وللنرويجيين بأن يعودوا إلى المستشفى لإنقاذ بعض الأطفال. وفعلاً عادوا وتمكنوا من إنقاذ أربعة أطفال معاقين. لكن ما كادت السيارة الدبلوماسية تتحرك من المستشفى في اتجاه الأوزاعي حتى تلفتت آن حيث كان يقف زملاؤها من الجسم الطبي، فلم تجد أحداً. اختفى الطبيب سامي الخطيب واختفى الآخرون. اختفى الفلسطينيون. وهي تقول نقلاً عن آخرين إنهم شاهدوا الطبيب سامي فيما بعد في المدينة الرياضية، وهناك شخص قال أنه رآه وقد عذب كثيراً قبل أن يقتل.[51]

هل كانت جثة الطبيب سامي أو جثة الطبيب علي بين الجثث المرمية في مسبح المدينة الرياضية؟

شهود العيان من بعيد حكموا بذلك لأنهم شاهدوا جثثاً لأربعة رجال يرتدون "الروب" الأبيض تعوم على سطح المسبح القليل المياه.

لكن لموظفين في الهلال الأحمر رأياً آخر، ذلك بأن المسعفين كانوا يرتدون "الروب" الأبيض أيضاً. وقد قتل ثلاثة من هؤلاء وهم في سيارة إسعاف، ومن الممكن أن تكون جثة أحدهم أو جثث ثلاثتهم قد قذف بها في المسبح. ويندر أن يتحدث أحد من الهلال الأحمر من دون أن يذكر أسماء الشهداء الثلاثة معاً، زياد معروف ونزار الصادق وجهاد الحاج. كانوا ثلاثة أصدقاء في الحياة وثلاثة رفاق في الممات.[52] وعندما تسأل الممرضة نزهة عمن فقدت في المجزرة من أهل، تجيب بأنها فقدت الكثير، ثم يكتشف السامع أنها لم تفقد أحداً من الأقرباء لكن من الزملاء. تقول:

> كان أقربهم لي تلاتة. أنا فقدت نزار، وفقدت جهاد، وفقدت زياد. كلهم انقتلوا بالمجزرة. كان نزار ضابط إسعاف، وكانوا التلاتة مسعفين، كانوا رايحين يوصّلوا جريح اسمه حاتم على مستشفى غزة. وصلوا على غزة ووصّلوا الجريح، وهمّي راجعين قتلوهم بنص الطريق. والسيارة اللّي كانت معهم كانت سيارة آخدينها من الصليب الأحمر، وعليها إشارة الصليب الأحمر. ولكن نحنا ما عرفنا إنهم ماتوا إلاّ في اليوم التاني. وما كان في اتصال بينّا وبين مستشفى غزة. كانت انقطعت الاتصالات لنسأل عنهم.[53]

(50) Ibid.

(51) Ibid.

(52) POH. S/SH. No. 110 (231/T. 86). Hasan A. (Abu Ali). Interview with author. Beirut: Narrator's office, May 11, 1984; POH. S/SH. No. 111 (243/T. 87). As'ad M. Interview with author. Beirut: Narrator's office, May 11, 1984.

(53) POH. S/SH. No. 35 (238/T. 35), as above.

من ضحايا الجسم الطبي والعاملين في مستشفى عكا طبيبان وممرضتان وثلاثة مسعفين وطباخ وحارس. وباقي الضحايا من المرضى، وخصوصاً الأطفال.

أمّا الأجانب، فقد عاد من عاد منهم في اليوم نفسه، ومن الذين عادوا ماريا عرابي الفنلندية، التي قتلوا زوجها المصري عرابي. كانت واحدة من المجموعة التي اقتادوها للتحقيق ساعة دخولهم المستشفى. وبعد التحقيق معهم بالقرب من مدخل شاتيلا خص المسلحون الأجانب باحترام خاص، فوضعوا لهم بطانية على الأرض ليجلسوا، وقدموا لهم السجائر والعلكة، وأعربوا عن اهتمامهم بإمكان أن يتعرضوا للأذى جرّاء الشمس الحارقة. ولمّا سألهم الأجانب كم سيمكثون هكذا جالسين على البطانية، لم يتلقوا رداً. ثم تم القرار بأن يذهبوا خشية أن يظن الإسرائيليون أنهم معتقلون لديهم. ولمّا سألوهم إلى أين يذهبون، هز المسلح كتفيه من دون جواب. فقال لهم الأجانب أنهم سيعودون إلى المستشفى وطلبوا أن يعود معهم الطبيب سامي لحاجة المستشفى إليه، وكان الجواب الرفض. وشاهدت ماريا جموع الموقوفين وهم يمشون صفوفاً رافعي الأيدي فوق الرؤوس.

أمّا المسلحون الذين احتلوا المستشفى وبقوا فيه، فغضبوا حين شاهدوهم قد عادوا للاعتناء بالمرضى والأطفال، وهاجموهم واصفين إياهم بالقذرين والسيئين لأنهم يعملون مع الفلسطينيين. وسألوهم إن كانوا شيوعيين أو من جماعة بادر – ماينهوف، ومن الذي أرسلهم، فأجابوهم بأنهم مسيحيون وأنهم جاؤوا من قبل عدد من المنظمات الإنسانية.[54]

سمح المسلحون للفريق الطبي الأجنبي بأن يبقى فقط في الطبقة السفلية، حيث كان لا يزال خمسة معاقين من الأطفال وطفل من مستشفى الأطفال. وكان باقي المرضى في الطبقة الأولى، وعددهم ثمانية، ومعهم ممرضتان واحدة فلسطينية والأُخرى لبنانية، وبقي مع المرضى الطبيب راشا، لكن إلى حين.

أمّا في شأن تصرفات هؤلاء المسلحين، حتى مع الأجانب، فكانت متناقضة جداً. تقول ماريا: "إنهم كانوا يبدون في لحظة معينة في منتهى العنف، وفي اللحظة التالية يظهرون استعدادهم للقيام بأي شيء لمساعدتنا."[55]

هناك طبيب أجنبي استثناه المسلحون وأرادوا إيذاءه، وأبقوه بمفرده في الطبقة السادسة تمهيداً لذلك، وهو الطبيب السريلانكي راشا. وقد اتضح أن أحد المسلحين كان يحتفظ بالطبيب رهينة، مهدداً بقتله إذا لم تعد ممرضة كان وعد نفسه بها، قبل السابعة مساء. وهي الممرضة نفسها التي رجت آن سوندي أن يأخذوها فلم يتمكن الفريق النرويجي من ذلك، إلاّ إنها عادت فتمكنت من الهرب. لكن العناية الإلهية أنقذت

(54) Lamb, ed., op. cit., p. 588.
(55) Ibid.

الطبيب عن طريق إسرائيلي كان عالجه في الجنوب يوم كان الطبيب يعمل هناك، فقال الجندي الإسرائيلي للميليشيوي: "أتركه يذهب". وقال للطبيب راشا: "إذهب إلى (بيروت الشرقية) وغادر البلد حالاً."[56] وهناك قصة ثانية تقول إنهم هددوا الطبيب راشا بالقتل إن لم يعطهم مبلغاً من المال.[57] وأخيراً أنقذ الطبيب كما أنقذ غيره لمّا جاء الصليب الأحمر.

من الواضح أن أفراد الميليشيات غادروا المستشفى، وربما موقتاً، في نحو الساعة الثالثة، ذلك بأن عناصر الصليب الأحمر الدولي لم يروهم هناك حين وصلوا بعد الظهر. لكن الحريق الذي شب في المستشفى فيما بعد يدل على عودة من أحرق المستشفى.

جاء موفدون من الصليب الأحمر الدولي مرتين لإنقاذ من تبقى في المستشفى. كانت أول مرة في نحو الساعة الثانية ظهراً، وقالوا أنهم حاولوا المجيء صباحاً فلم يتمكنوا، ووعدوا بالعودة بعد الظهر أيضاً، ووفوا بوعدهم في الساعة الرابعة والدقيقة الثلاثين بعد الظهر. تقول ماريا إنه كان هناك أربعة مرضى فقط في الطبقة الأولى، ولم تعرف مصير الأربعة الباقين، فنقل الصليب الأحمر المرضى إلى مستشفى نجار، والأطفال مع الممرضة إلى مركز أمل.[58] ويقول حمزة أنه كان هو وأبوه بين الجرحى المحظوظين الذين أُنقذوا، ويتذكر أن الساعة كانت الثالثة والدقيقة الثلاثين بعد الظهر لمّا وصلوا إلى مستشفى نجار.[59]

كان طوني أ. أحد المسعفين في فرقة الصليب الأحمر اللبناني التي رافقت الصليب الأحمر الدولي إلى مستشفى عكا بعد ظهر الجمعة. قال إنه جرى اتصال بهم فحواه أن ثلاثة ماتوا في مستشفى عكا، وأن عليهم الذهاب للمجيء بهم. ولمّا كانت طريق صبرا مقفلة فقد اضطروا إلى الذهاب عن طريق الأوزاعي. هناك صادفوا حواجز لكن "مشي الحال"، على الرغم من أنهم توقفوا في محلات خطرة وخلال القصف، فكان مسؤول الصليب الأحمر الدولي يترجل ويتكلم مع المسؤولين الإسرائيليين هناك. وعند حاجز مستديرة الطيونة اضطر المسعفون إلى الترجل وهم يلفون أنفسهم بأعلام الصليب الأحمر كي يتأكد الجنود أنهم حقاً مسعفون.

عند وصول المسعفين إلى مستشفى عكا سمعوا صوت إطلاق رصاص قوياً وسقوط قذائف، واستغربوا هذه الأصوات، إذ كانوا يعلمون أن الشباب سلموا سلاحهم. لماذا الرصاص إذاً؟ من يحارب من؟ يقول طوني:

(56) POH. S/SH. No. 52 (249/T. 51), as above.
(57) Lamb, ed., op. cit., p. 589.
(58) Ibid., pp. 588, 589.
(59) POH. S/SH. No. 36 (236/T. 36). Hamzah F. Interview by A. M. Massacre area: Narrator's house, March 9, 1983.

لمّا فتنا على مستشفى عكا ساعتها اكتشفنا إنّو الناس اللّي كانوا ميتين واللّي رايحين نجيبهم ما كانوا ميتين من قصف أو شي، كانوا ميتين من ضرب رصاص عن قريب. كانوا ميتين متل اللّي شفناهم بعدين كيف ماتوا بالمجزرة. وفي الوقت اللّي كانت عم تقوم فيه المجزرة إحنا كنا بمستشفى عكا، وما عرفانين إنّو المجزرة عم تصير.

بعدين عرفنا إنّو الجماعة [يقصد الميليشيات المسلحة] كانوا طلعوا من عكا وفاتوا لجوّا وصاروا بصبرا. بعدني بتذكر منيح إنّو إحنا شلنا من جماعة عكا يومتها امرأتين وحكيم وعامل كان يشتغل بمحطة بنزين جنسيته مصرية. شلناهم، كانوا كتير مشنْعين فيهم للممرضات والحكيم كمان هيداك المصري [يقصد الطباخ المصري الذي كان يلبس الرداء الأبيض] كان مقتول. أخدناهم. وشلنا معنا كمان من المرضى بذكر ستة أو سبعة كان معظمهم ختيارية.(60)

ح – مصير الأطفال

أنقذ السكرتير الأول في السفارة النرويجية والفريق النرويجي أربعة أطفال معاقين، وأنقذ الصليب الأحمر الدولي أطفالاً آخرين، لكن أين ذهب بقية هؤلاء الأطفال؟ المعاقون منهم، والمرضى، والرضّع؟ هل قتلوا؟ وكيف؟ وأين الجثث؟

يقول موظف الأشعة إن الأطفال كانوا في أسرّتهم في الملجأ لحمايتهم، وهناك قتلوهم. وأخذهم عناصر الصليب الأحمر إلى مستشفى غزة.(61)

عبر فيلم فيديو التقط يوم الجمعة في مستشفى غزة يظهر الطبيب البريطاني بول موريس حاملاً جثث أطفال رضّع من المشرحة، ويعرضها على المصورين. لمن كانت تلك الجثث؟(62)

تقول الممرضة نزهة أنها عندما عادت يوم السبت إلى مستشفى عكا سألت عناصر الصليب الأحمر عما جرى في قسم الأطفال في المستشفى، لكنهم لم يكونوا على علم بوجود قسم للأطفال أصلاً. قادتهم هي إليه، لكنه كان خالياً. لم يكن فيه أحد. وهي تجزم أن أفراد الميليشيات قتلوا الأطفال:

إحنا تاني يوم لقينا طفل مزتوت برّا بالجنينة. ورجعنا رحنا على صبرا لقينا أطفال كنا نعالجهم. يعني بنعرفهم، شفناهم.

كان في أطفال عمرهم شي سنة، وفي 3 سنين، وفي 4 سنين، وفي ولد مشلول ما بيتحرك قاتلينه بالبلطة.

(60) POH. S/SH. No. 86 (231/T. 74). Tony A. Interview by Mona Sukkarieh. Beirut: Narrator's office, June 1983.

(61) POH. S/SH. No. 54 (230/T. 53), as above.

(62) Danish cameraman et al., The Massacre Video.

ويمكن قاتلينهم ورامييهم في صبرا حتى ما ينقال إنهم قتلوا الأطفال المرضى في مستشفى.[63]

تقول عزيزة الخالدي، مديرة مستشفى غزة، استناداً إلى شهادة الصليب الأحمر الدولي، إنه لمّا وصل المسعفون إلى مستشفى عكا يوم الجمعة، رأوا طفلاً صغيراً ميتاً حرقاً.[64]

تقول أم أكرم، وهي "أولى الباحثات عن الضحايا": "لمّا دخلت الكتايب على عكا صباح الجمعة، راحوا شالوا كل اللّي بالمراطبين، يعني الأطفال اللّي لساتهم مش كاملين، مش كامل نموهم. وقتلوهم."[65]

أمّا الحاج الذي نجا من الموت في الرواية التاسعة والثلاثين، فقد شكر ربه على نجاته، وراح يساعد رجال الصليب الأحمر والدفاع المدني لأيام متتالية بحثاً عن الضحايا، وهو يقول أنه شاهد عند مدخل ملجأ مقفل في حي عرسال، حالما تمكنوا من فتح الباب، جثثاً مكدسة فوق بعضها، وبينها جثث لأطفال رضّع في الأشهر الأولى ولأطفال لم يكتمل نموهم بعد، وعددها ما بين العشر والاثنتي عشرة جثة.[66]

ليس من المؤكد أن تلك الجثث هي كلها لأطفال كانوا في مستشفى عكا، لكن من المؤكد أنها جثث أطفال!

* * *

أمّا في شأن مصير مستشفى عكا، فقالت الممرضة نزهة عندما عادت يوم السبت أنها وجدته محروقاً: البرادي كلها محترقة؛ البرّاد محطماً على الأرض؛ التموين على الأرض مدعوساً بالأقدام؛ الزجاج محطماً؛ صورة الطبيب فتحي عرفات مهشمة على الأرض وعليها آثار الدعس والأقدام؛ ثلاث ضحايا في قلب المستشفى لم تدفن بعد؛ "الكافيتيريا" محطمة مع كل الدلائل على أنهم أكلوا وشربوا طوال الليل؛ الفراش المسحوب والملقى في الخارج حيث نام من نام منهم في تلك الليلة.[67] ■

(63) POH. S/SH. No. 35 (238/T. 35), as above.

(64) POH. S/SH. No. 34 (241/T. 33). Aziza Khalidi. Interview with author. Beirut: Author's house, March 4, 1983.

(65) POH. S/SH. No. 19 (249/T. 22), as above.

(66) POH. S/SH. No. 16 (248/T. 18). Hajj Mahmoud R. Interview with author. Beirut: Author's house, February 16, 1983.

(67) POH. S/SH. No. 35 (238/T. 35), as above.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf